

ملخص البحث

في هذا البحث العلمي الذي يحمل عنوان "كتاب الأغاني في كفة الميزان" يتناول الباحث بالدراسة كتاب الأغاني الشهير لمؤلفه أبو الفرج الأصفهاني، هذا الكتاب الذي اشتهر قديما وحديثا ونال اهتمام الأدباء والنقاد والدارسين، وأثار جدلا واسعا حول دقته وصدق مراجعه وصواب محتواه، فمنهم من مدحه وأشاد به، ومنهم من قدح فيه واتهم مؤلفه بالخبط والكذب وسوء النية والقصد.

ولذا فقد كان موضوع هذا البحث جديرا بالكتابة فيه والتعرض لإضاءة بعض الجوانب والإشكالات التي يمكن أن يثيرها، فطرح الباحث عدة أسئلة وحاول أن يجيب عليها بتجرد وموضوعية، منها: ما حقيقة كتاب الأغاني؟ ولم هو مشهور إلى هذا الحد؟ هل هو كتاب تراث للمتعة الأدبية وتقوية الملكة البيانية؟ أم أنه مصنف علمي يُسترشد به ويُرجع إليه؟ كيف يرى الناس هذا الكتاب؟ ثم هل أصاب الكتاب تحريف أو حذف أو تقديم وتأخير، هل ضاع شيء من هذا الكتاب أم وصل كاملا؟ وهل هو كتاب واحد أم أنه مختلط مع كتاب آخر؟

أحاول دراسة هذا الكتاب مستفيدا من آراء السابقين وأقوال العلماء الذين درسوا كتاب الأغاني وسبقوني إليه، في هذا البحث يضع الباحث الكتاب في كفة الميزان النقدي لدراسته والوقوف على بعض ما فيه، آملا أن تكون الدراسة خالية من التحيز متسمة بالموضوعية، فهل كتاب الأغاني بريء مما اتهم به، كفة الميزان تجيب.

Abstract

In this scientific research entitled "Al- Aghany in The Scale", the researcher presented the famous book Al- Aghany for Abiel- Farej Al- Asfahany. The book had attracted wide attention of writers, critics and scholars, and raised much controversy about the accuracy and authenticity of its content.

Some critics praised the book, others did not and accused Abiel- Farej Al- Asfahany - the author - of malice, lying, and bad faith. Therefore, the subject of this research was worthy of writing in order to illuminate some aspects regarding the book and to raise some other issues. The researcher asked several questions and tried to answer them impartially and objectively:

What is the truth of Al- Aghany? Why is it so famous? Is it a heritage book for literary pleasure? Or it can be classified as a scientific certified reference? How do people see this book? Is there anything lost, changed or deleted from the book? Is it one book or mixed with another book?

Placing the book in the critical scale and considering the ex-views of who studied Al- Aghany before, the researcher tried to examine it objectively. So, is Al- Aghany innocent of the accusation? The critical scale answered.

كتاب الأغاني في كفة الميزان

د. سليمان مختار إسماعيل: أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة مصراتة.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد: فإنني لا أعتقد أن أحدا من أهل العربية لم يسمع بهذا الكتاب، كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، فقد لاقى هذا الكتاب من الشهرة والذيع ونال من الاهتمام به والإشادة ما لم يكده يناله غيره من الكتب والمؤلفات، منذ تأليفه وإلى يومنا هذا.

إن لكتاب الأغاني طيننا ورنينا في آذان أهل الأدب والتاريخ، ملأ الأفاق وصح الأذان فما حقيقة هذا الكتاب؟ وما هو السر الكامن وراء هذه الشهرة؟ وما هي المنزلة التي يمكن أن نصنف فيها هذا الكتاب بين كتب التراث العربي؟ وما هي الصورة المرسومة حوله في أذهان الناس؟ ثم هل أصاب النص الذي كتبه المؤلف شيء من التحريف؟ هل سقط شيء من نصوص هذا الكتاب وتراجمه؟ هل يمكن أن تكون بعض التراجم قد قدمت أو أخرت؟ هل فُقد شيء من الكتاب؟ هل هذا الكتاب واحد أم أنه مختلط مع كتاب آخر؟ أسئلة كثيرة تسترعي الانتباه وتنقدح في ذهن المتلقي وتقف أمام الباحث وأمام القارئ المتأمل عند مطالعته لهذا السفر الكبير والمصنف الشهير، ورغبة مني في الوقوف على إجابات لهذه الأسئلة وغيرها، وبدافع الأمل في إضاءة بعض الجوانب المتعلقة بهذه الأسئلة، وأن أجد إجابة مقنعة لما أستطيعه منها، كان الاتجاه نحو هذا الكتاب والبحث فيه، وأن أضع هذا الكتاب في كفة الميزان النقدي لدراسته والوقوف على بعض ما فيه آملا أن تكون الدراسة متأنية، والبحث متريناً خاليا من التحيز متمسماً بالتجرد والموضوعية.

إن اتصالي بهذا الكتاب وعلاقتي به كانت منذ زمن ليس بالقليل، وإن كان في بدايته اطلاعا عابرا مقتصر على استقاء المعلومة أو نقل الشاهد والترجمة للعلم ونحو ذلك عند كتابتي لبعض البحوث العلمية، فلم أنتبه لما قيل فيه ولا فيما كتب حوله إلا في سنوات متأخرة حين درّست مادة كتاب قديم لطلبة الدراسات العليا بالأكاديمية الليبية بمصراتة، وكان هذا الكتاب مقررا في شعبة الأدبيات من تلك المرحلة، فاقتربت منه أكثر، وتناولت كثيرا من أخباره بالدراسة، واطلعت على بعض ما كتب حوله وما قيل فيه وفي مؤلفه، فرأيت كلمة الدارسين لهذا الكتاب مختلفة متباينة إلى حد التصادم، رأيت المادحين

والقادحين، والمعلّلين والمجرحين، ومن يشيد بالكتاب ومؤلفه ويضعه في مصاف العلماء المتقدمين، ومن مجرد سيفه لنحره مؤكداً جواز ذلك. إن لم نقل وجوب ذلك. بالأدلة والبراهين.

من هنا جاءت فكرة هذا البحث الذي سأعرض فيه لكتاب الأغاني وصاحبه معرّفًا بما ذكرا لأهم ما يجب أن نعرفه حول هذا الكتاب من منهج ومادة وموقف للنقاد والدارسين، واضعًا الكتاب في كفة الميزان النقدي كما قلت، مستنيرًا بأراء السابقين وأقوال العلماء الذين تناولوا هذا بالدراسة والبحث، فها هو ذا كتاب الأغاني بين الجرح والتعديل والاتهام والتبرئة فأبي الكفتمين ترجح؟

مؤلف الكتاب:

لم يتطرق إلى ذهن أحد من الدارسين شك، ولا خالجت نفس أحد منهم ريبة في صحة نسبة هذا الكتاب إلى علي بن الحسين بن مُحمَّد بن الهيثم بن عبد الرحمن ابن مروان بن عبد الله بن مروان بن مُحمَّد بن الحكم الأموي، فمؤلف هذا الكتاب عربي صليبية ينتهي نسبه إلى مروان بن مُحمَّد آخر خلفاء بني أمية⁽¹⁾، وهذا من أعجب العجب كما يقول الشيخ علي الطنطاوي، ذلك أن أبا الفرج كان أمويًا وكان يتشيع، يقول الشيخ علي الطنطاوي في كتابه فصول في الثقافة والأدب: "ولا أعرف الأموية اجتمعت مع التشيع في أحد قبله ولا أحد بعده"⁽²⁾، وغلب على أبي الفرج نسبه إلى أصفهان فإذا قيل الأصفهاني فغالبًا ما تنصرف الأذهان إلى صاحبنا هذا مؤلف كتاب الأغاني، ولد في أصفهان سنة 284هـ، ونشأ في بغداد والكوفة، وأخذ على ابن دريد، وكان من خاصة تلاميذه كما يقول أحمد أمين، كما أخذ على أبي الأحوص الثقفي، والأخفش، ونفطويه، وابن الأنباري، وابن جرير الطبري وغيرهم من الثقات⁽³⁾، وامتاز باطلاعه الواسع على الشعر والأغاني والأخبار والنسب، كما كان ملما بآلات الطرب، والطب والنجوم والأشربة، وله كتب ومصنفات كثيرة منها: كتاب الأغاني، الذي قال: إنه كتبه في خمسين سنة، وقد أهدى أول نسخة منه إلى سيف الدولة فأجازه بألف دينار، وقد أعجب صاحب بن عباد بهذا الكتاب وكان يستصحبه في أسفاره، ومن مؤلفات الأصفهاني أيضًا كتاب التعديل والانتصاف، ومقاتل الطالبين، وأخبار القيان، والإماء الشواعر، والمماليك الشعراء، وأدب

(1) . سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، دار المؤيد، مؤسسة الرسالة، ط11، 1422هـ، 2001م، 16/ 201_203.

(2) . فصول في الثقافة والأدب، علي الطنطاوي، دار المنارة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2007م، ص:102.

(3) . ظهر الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، الطبعة الخامسة، 1364هـ، 1945م، ج1، ص:239،

والسيف اليماني، ص:4107.

الغرباء، والأخبار والنوادر، وأدب السماع، وأدب الطفيليين، والخمارين والخمارات، ومناجيب الخصيان وغيرها⁽¹⁾.

كان أبو الفرج الأصفهاني صديقا للوزير المهلي قبل الوزارة وندبما له بعدها، يؤنسه ويسليه ويمتعه بأخباره ونوادره وحكاياته، حتى ارتفعت الحشمة بينهما فكان يسمعه الهجاء البذيء فيه، وكان المهلي يطلب منه ذلك، ثم صار الأصفهاني كاتباً في ديوان ركن الدولة البويهبي، وعلت مكانته عنده لاتفاقهما في التشيع⁽²⁾.

ويرى بعض الدارسين أن الأصفهاني قد أخذ التشيع عن أمه، وهي من آل ثوابة، وآل ثوابة أسرة مسيحية اعتنقت الإسلام ثم مالت إلى التشيع، سعى الأصفهاني إلى أن ينال رعاية الوزير بن العميد ولكنه أخفق في ذلك، وتوفي سنة 356هـ، فكانت حياته نحو اثنتين وسبعين سنة⁽³⁾.

وأما الكتاب فهو كتاب الأغاني، ولعل سبب تسميته بهذا الاسم هو أن أبا الفرج قد بنى مادة هذا الكتاب على المائة صوت من أصوات الغناء العربي كان قد اختارها لهارون الرشيد ثلاثة من أعلام فن الغناء في عهده وهم: إبراهيم الموصلبي، وإسماعيل بن جامع، وفليح بن العوراء، ثم اختار منها ثلاثة أصوات، وفي عهد الواثق بالله الخليفة العباسي اختار له إسحاق الموصلبي من هذه المائة ما رأى أنه أفضل من غيره⁽⁴⁾، وكان أول خبر في هذا الكتاب الكبير الواسع خبر أبي قطفية⁽⁵⁾، وقد درج المؤلف على النهج الذي سلكه في هذا الخبر في سائر كتابه، فكان يبدأ بذكر نسب الشاعر وكثيراً ما يهتم بنسبه من جهة أمه ثم يأتي على أبرز مفاصل الخبر، وكان يذكر الشعر، ونوع اللحن، ومن غناه، ومن لحنه، ثم يترجم للمغني وللشاعر، ويستطرد فيذكر صوراً من الحياة المتصلة بكل منهما، وينتقل إلى

(1) . السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني، ضمن الأعمال الثرية الكاملة، وليد الأعظمي، جمع وترتيب وتدقيق عبد الله الطنطاوي، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى 1428هـ 2007م المجلد/ 8، ص: 4107.

(2) . المرجع السابق، ص: 4108.

(3) . السيف اليماني، 4108.

(4) . عناوين جدد لوجوه قديمة في تراثنا الأدبي والفكري، حسين مروة، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1984م، ص: 139.

(5) . كتاب الأغاني، 1. 24.

ترجمات أشخاص آخرين، وإلى نقد الشعر، وذكر ما يعارضه وما يماثله، وهكذا ينتقل المؤلف من صورة إلى صورة، ومن لون إلى لون يتخلل ذلك كله صنوف من العلم والمعرفة، وشؤون من الحياة العامة⁽¹⁾. وقد تولت دار الكتب المصرية طباعة هذا الكتاب، بعد الطبعة الاستشرافية، وأخرجته بأربعة وعشرين مجلدا كبيرا، وحشدت له لجنة من العلماء والأدباء لتحقيقه، لكن هذه اللجنة مرت ببعض الأخبار مرور الكرام، وكان الأمر يقتضي أن تنبه القراء إلى كثير من الهفوات والسقطات والدسائس وإلى ما يجب الحذر منه، إلا أنها لم تفعل.

إن من يدرس كتاب الأغاني يتأكد لديه بما لا يدع مجالا للشك أن الغناء في العصر العباسي قد أصبح فنا له أسسه العلمية، شأنه شأن الأدب والفنون الأخرى، فكثر فيه الاحتراف، واتخذ مصدرا للتكسب والارتزاق، وألفت فيه الكتب والمصنفات، من ذلك كتاب: أخلاق المغنين، وكتاب المغنين والغناء والصنعة، وطبقات المغنين، وكلها للجاحظ⁽²⁾.

منهجه وأسلوبه: لم يعتمد أبو الفرج على التصنيف والتبويب، ولم يتبع منهجية علمية في كتابه، بل جعل شخصية الشاعر هي محور حديثه فكان يبدأ حديثه عن الشاعر بالترجمة له وذكر نسبه، وقد يذكر نسبه من جهة أمه، ثم يسترسل في الحديث عنه وعن أخباره، ونظرا لسعة أفق المؤلف وغزارة علمه وكثرة رصيده من الأخبار والأشعار وكثرة نقله فقد كان يستطرد كثيرا ويتعد عن المركز، وإذا شئنا أن نجمل بعض السمات المنهجية عنده أمكننا أن نقول:

1. إنه كان يورد الأخبار مسندة، وربما أطال في ذلك السند، بغض النظر عن الخبر وقيمه العلمية.
2. كان يضم الأخبار المتشابهة إلى بعضها ويكمل بعضها من بعض، أي أنه كان يُلقِّق الأخبار.
3. كان يختار من اللغة ما يخدم هدفه ولا يتحرج في أن يسمي الأشياء بأسمائها، فيورد اللفظ العامي، واللفظ البديء المستهجن.
4. أحسن وأجاد في اختيار قصصه وأخباره وأشعاره، فقد كان يملك بأسلوبه الأخاذ على المتلقي عقله وقلبه.

(1) - عناوين جدد لوجوه قديمة في تراثنا الأدبي والفكري، حسين مروة، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1984م، ص: 139

(2) - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م، 77/6، والمخصص، لابن سيده، دار الفكر، 1398هـ - 1978م، المجلد الرابع، ص: 9، باب الملاهي والغناء.

5. كان يفصل بين الأديب وإبداعه الفني.

6. وكان كثيرا ما يستطرد في الأخبار، ولعل ذلك لسعة أفقه وغزارة علمه ومخزونه الثقاني، فإذا أحس بأنه ابتعد وأطال وأراد العودة إلى خبر الشاعر الذي يتحدث عنه قال: **عدنا**، أو **رجع الخبر إلى سياقه**، **أخبار فلان**، ويذكر بالشاعر الذي يتحدث عنه.

أهم محتويات الكتاب:

سبق أن أشرت إلى غزارة المادة العلمية التي تضمنها كتاب الأغاني وكثرة ما فيه من ثقافة وأدب وجمال لغة، وبشيء من الإجمال نقول إن من أهم ما حواه كتاب الأغاني:

1. الأغاني، والتي هي سبب التسمية، وهي عبارة عن أبيات شعرية تكون قصيدة أو جزءا من قصيدة كانت ضمن ما تم اختياره، فيورد أبو الفرج خبر الشاعر صاحب القصيدة، ونسبه، ويستطرد في الخبر، كما كان يورد الأصوات التي عُني بها ذلك الشعر، وقصة ذلك الغناء، فكان الأصفهاني إذا أراد ذكر الشعر الذي غني، أو شيئا من المائة المختارة قال: **صوت**، ثم يوردها ويتبعها بوصف اللحن الذي غنيت به، فمثلا: نجد في آخر خبر الوليد بن يزيد⁽¹⁾، قوله صوت من المائة المختارة:

أُمَّ سَلَامٍ مَا ذَكَرْتُكَ إِلَّا شَرَقْتُ بِالْذُّمُوعِ مِيَّ الْمَآفِي
أُمَّ سَلَامٍ ذَكَرْتُكُمْ حَيْثُ كُنْتُمْ أَنْتَ دَائِي وَفِي لِسَانِكَ رَاقِي
مَا لِقَلْبِي يَجُولُ بَيْنَ التَّرَاقِي مُسْتَخِفًّا يَفُوقُ كُلَّ مَتَاقٍ
حَدْرًا أَنْ تَبِينَ دَارُ سُلَيْمَى أَوْ يَصْبِيحَ الدَّاعِي لَهَا بِفِرَاقٍ

ثم قال: غناه عمر الوادي، ولحنه المختار خفيف الرمل.

ومن ذلك أيضا ما ذكره في نهاية خبر طويس، قال: صوت من المائة المختارة:

أَفِئِّي يَا دَارِمِي فَقَدْ بَلَيْتَا وَإِنَّكَ سَوْفَ تُوشِكُ أَنْ تَمُوتَا
أَرَاكَ تَزِيدُ عَشَقًا كُلَّ يَوْمٍ إِذَا مَا قُلْتَ إِنَّكَ قَدْ بَرَيْتَا⁽²⁾

ثم قال: الشعر والغناء جميعا لعبد الدارمي، ولحنه المختار من خفيف التثقيب الأول⁽³⁾، وهكذا كان الأصفهاني يفعل في كل صوت يورده، يذكر من غناه ولحنه الذي غني به.

(1). كتاب الأغاني، 7 / 81 . 82.

(2). كتاب الأغاني، 3 / 43 .

(3). كتاب الأغاني، 3 / 43 .

ودارس كتاب الأغاني يتبين له معرفة علماء العرب للإيقاع ، وهو النقلة على النغم في أزمنة محدودة المقادير والنسب، كما يجد فيه أنواع الإيقاعات العربية، ويدرك تمكن المؤلف منها ومعرفته بها ، وهذه الإيقاعات هي:

1. الهزج: وهو الذي تتوالى نقراته نقرة نقرة، ورسمه: تن، تن، تن.
2. خفيف الرمل: وهو الذي تتوالى نقراته نقرتين خفيفتين، ورسمه: تن تن، تن تن.
3. الرّمل، ويسمى ثقيل الرمل، وهو الذي إيقاعه نقرة واحدة ثقيلة ثم اثنتان خفيفتان، ورسمه: تن، تن تن، تن ، تن تن.
4. الثقيل الثاني: وهو اثنتان ثقيلتان وواحدة خفيفة، ورسمه: تن تن، تن، تن تن، تن.
5. خفيف الثقيل الثاني، ويسمى الماخوري، وهو نقرتان خفيفتان ثم واحدة ثقيلة، ورسمه تن تن، تن تن تن تن، تن
6. الثقيل الأول: وهو ثلاث نقرات متوالية ثقال، ورسمه: تن تن تن، تن تن تن.
7. خفيف الثقيل الأول: وهو ثلاث نقرات متوالية أخف من نقرات الثقيل الأول، ورسمه: تن تن تن، تن تن تن⁽¹⁾.

ومما حواه كتاب الأغاني أيضا:

2. أيام العرب ووقائعهم وميائهم وأنسابهم وأخبار قبائلهم.
3. البدايات وما فيها من حيوان ونبات، والبدو وتقاليدهم وعاداتهم.
4. ترجم لكثير من الأعلام من شعراء وغيرهم، وعرف بهم، وكتب كثيرا من تفاصيل حياتهم، وشؤونهم المختلفة.
5. حوى كثيرا من الرقائق، والطرائف، وغرائب الأخبار، والحرفات.
6. اهتم بالأنساب، وسرد سلاسل نسبية طويلة تدل على سعة أفقه ومعرفته بهذا الجانب من حياة العرب واهتمامه به.

(1) . مفاتيح العلوم، الخورزمي، تقديم جودت فخر الدين، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1411هـ. 1991م، ص: 214.

مصادره:

إن المتأمل في هذا الكتاب ليعجب من كثرة ما فيه من أخبار وغزارة ما حواه من أدب على اختلاف مستواه وتباين حظه عند المتلقين له، حتى إن العجب ليدفعك إلى التساؤل كيف جمع أبو الفرج الأصفهاني هذه المادة وكم استغرقت من الزمن؟!.

ولعلنا إن أردنا الوقوف عند أهم مصادره التي اعتمد عليها في هذا الكتاب ومن خلال ما كتبه وما كان يصرح به وجدناها متمثلة فيما يلي:

1. ما سمعه من الناس مشافهة، وكان يذكر ذلك عند إيراده الخبر.
2. ما سمعه في ندوات الأدب أو رواه شيوخ الأدب.
3. ما قرأه في الكتب التي اطلع عليها، وكان من منهجه أنه لا يذكر اسم الكتاب، بل يكتفي بذكر مؤلفه وكأنه يرى أن في ذلك تعزيزاً للخبر وزيادة للثقة فيما ينقل، وكان المؤلف عند استفادته من الكتب والمراجع التاريخية والأدبية ينوع عبارات الاقتباس، فنجده يقول: نسخت، أو قرأت، أو وجدت، أو قال: في كتاب كذا، أو ذكره في⁽¹⁾.

الهدف من تأليف الكتاب:

والقارئ للكتاب يقف على الباعث على تأليفه، فنجد المؤلف يقول في بدايته: "والذي بعثني على تأليفه أن رئيساً من رؤسائنا كلفني جمعه له، وعزّفتني أنه بلغه أن الكتاب المنسوب إلى إسحاق مدفوع أن يكون من تأليفه، وهو مع ذلك قليل الفائدة، وأنه شاك في نسبه؛ لأن أكثر أصحاب إسحاق ينكرونه؛ ولأن ابنه حمادا أعظم الناس إنكاراً لذلك، وقد، لعمري، صدق فيما ذكره وأصاب فيما أنكره"⁽²⁾.

فنجد أن الباعث كان باعثاً علمياً بحتاً، وهو الرغبة في التحقيق العلمي السليم، والطموح إلى تنفيذ منهج علمي قريب جهد الإمكان من الحقيقة الكاملة المطلقة، فالكتاب جاء رداً على ما شاع في عصر المؤلف من آثار منحولة مفتعلة تنسب إلى مشاهير أصحاب الصناعة الفنية في الغناء أو غيره من الفنون، وقد حاول المؤلف خلال كتابه أن يرد على الشك، ويشير إلى المغالطة، ويضع يد قارئه على

(1). دراسة كتاب الأغاني ومنهج مؤلفه، داود سلوم، مكتبة النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة، 1985م، ص:38.

(2). الأغاني، 16/1.

المنحول من الأخبار، وبينه على المستحيل، ويضع علامة استفهام فوق ما لم تسعفه فيه الرواية لإرجاعه إلى أصوله الأولى.⁽¹⁾

كان هدف أبي الفرج من تأليف كتابه هذا الإمتاع، وليس التاريخ، فكان يورد الأخبار الجذابة وإن لم تكن مهمة، ويترك المهم إذا لم يكن جذابا، ولعل هذا ما أعطى مندوحة لبعض المدافعين عليه والمعجبين به، فقالوا: إن الكتاب للإمتاع والمؤانسة لا للدين والتاريخ، ورأوا أن يتسامح في مثل ما يورده وألا يضيّق عليه بالتحقيق والتدقيق⁽²⁾، وفي هذا الكلام نظر، فحتى أخبار الأدب والشعر يجب على المؤلف أن يتحرى فيها ما أمكن، وأن لا يتعمد فيها التزوير والزيادة، وأن لا ينقل عن المتهمين من الرواة، ولا سيما الأخبار التي يحس منها رائحة الشعوبية أو التجديف ضد الدين والعبادة، أو الخلط في حقائق التاريخ والحياة.

آراء النقاد والدارسين:

تباينت كلمة النقاد والدارسين لهذا الكتاب ومؤلفه، فكانوا فيه بين مادحين وقادحين:

أولا آراء المادحين: لقد تعاورت هذا الكتاب أقلام كثيرة، بعضها يبجل الكتاب وصاحبه، ويثني على العمل ومنشئه ويرفع من قدرهما، حتى إنه ليصف الكتاب فيقول إنه مكتبة في كتاب، وكتاب لا يستغنى عنه، وكتاب أغنى عن حمل ثلاثين جملا أيام ابن عباد، وأنه يجب أن لا تخلو منه مكتبة ولا بيت، إلى غير ذلك من الثناء، وقد وصفه أحدهم بأنه قد حوى قدرا كبيرا من الدقة والأمانة العلمية في النقل ومحاوله النقد النزيه السليم البناء، وأنه أوثق كتاب وأثمن وثيقة كتبت في لسان العرب وأصدقها وأبعدها عن المبالغة، وهذا كله دليل على عظمة مؤلفه ومستوى تفكيره الرائع، وأنه نسيج وحده ووحيد عصره دون شك، فهذا الكتاب يعد محاولة فريدة تمكن بها المؤلف من تسجيل أخبار الأدب والتاريخ والفن⁽³⁾.

(1) . ينظر دراسة كتاب الأغاني ومنهج مؤلفه ، داود سلوم ، ص: 33.

(2) . السيف اليماني، ص: 1422.

(3) . دراسة كتاب الأغاني ومنهج مؤلفه ، ص: 69.

فقد حوى كتاب الأغاني ما يزيد على ثمانين ألف بيت من الشعر⁽¹⁾، وكان أبو الفرج حريصاً على الإسناد، كأنه يرى في ذلك زيادة للثقة وتعزيزاً لما يورده من أخبار وأشعار، وإن كان هذا الإسناد يتناقض مع مضمون الخبر أحياناً، فتجد الخبر مسنداً مع أنه تافه أو فيه مطعن في شخص معتبر أو قيمة دينية، أو أن تجد فيه شعوبية صارخة⁽²⁾.

ومما جاء في الثناء على مؤلف كتاب الأغاني، ما استدرك به الشيخ الطنطاوي على نفسه بعدما نعت الأصفهاني بجملة من الصفات السلبية، وعدّ عليه كماً من المآخذ، ثم قال: "...، ولكنه . مع هذا كله . كان آية في سعة الحفظ وكثرة الرواية عارفاً بأكثر العلوم، كاتباً ناقداً موسيقياً شاعراً، يحسن الوصف وإن كان الغالب عليه الهجاء"⁽³⁾.

ومن أثنى على كتاب الأغاني ومدحه عبد الرحمن بن خلدون صاحب المقدمة فقال: "وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني . وهو ما هو . كتابه في الأغاني، جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ولعمري إنه ديوان العرب وجامع أشنات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر، والتاريخ، والغناء، وسائر الأحوال، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأنى له بما"⁽⁴⁾، وكذلك فعل طه حسين فقد أثنى عليه في كتابه حديث الأربعاء، واعتمد عليه اعتماداً كبيراً، ولم يعترض عليه في شيء سوى في ثلاثة مواضع على كبر حجمه وكثرة مادته وغزارة ما فيه، ومثلهما فعل حسين مروة، فقد وصف الأصفهاني بأنه كان أميناً للتاريخ كل الأمانة، وعاب على من قال إنه لا يجوز الاعتماد على الأغاني من الناحية التاريخية الشاملة⁽⁵⁾.

والذي نرجحه أن هؤلاء لم يقرؤوا الكتاب قراءة كاملة وإلا لما كان هذا رأيهم فيه، اللهم إلا أن يكون في نفس أحدهم هوى كالذي كان في نفس مؤلفه، يقول مراد الأعظمي: "ولو قرأ الأستاذ

(1) . السيف اليماني، 4110.

(2) . السيف اليماني، ص: 4111.

(3) . فصول في الثقافة والأدب، علي الطنطاوي، ص: 102.

(4) . مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، دار العودة بيروت، 1988م، ص: 460.

(5) . عناوين جدد لوجوه قديمة في تراثنا الأدبي والفكري، حسين مروة ص: 140.

حسين مروة ما كتبه الأصفهاني عن آل البيت لتبرأ منه وشك في روايات الأغاني أو لتغير موقفه من آل البيت إن صدق ما ذكره الأصفهاني وقبله⁽¹⁾.

ومع هذا فإن من أراد متعة الأدب، وطلب جيد الشعر وأراد الإحاطة بأخبار الشعراء والمغنين للذة الأدبية وتقوية الملكة البيانية فلا يجد كتاباً أجمع لهذا كله من كتاب الأغاني، وقد تكون هذه غاية من أثنى على الكتاب.

ثانياً: آراء القادحين:

وفي مقابل ما تقدم من مدح وتبجيل لكتاب الأغاني ومؤلفه وجدت من الدارسين والباحثين من قدح في المؤلف والكتاب، ورماه بالشعوبية وأكثر، بل ربما اتهمه بعضهم بالإلحاد والفسوق والفساد المغرض، حتى بلغ بمراد الأعظمي أن ألف كتاباً سماه "السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني"، وقد تتبع مراد الأعظمي كتاب الأغاني وصاحبه ونقده وكشف عن كثير من الهفوات التي فيه والفساد والخبث الذي احتواه، على حد رؤيته وما ذهب إليه⁽²⁾.

وقد أثار كتاب الأعظمي حفيظة بعض الدارسين المعجبين بكتاب الأغاني فانبرى للدفاع عنه وعن صاحبه، من ذلك ما فعله عادل بن حرمان فقد ذكر أنه قرأ كتاب السيف اليماني في نحر الأصفهاني، فدفعه ذلك إلى قراءة كتاب الأغاني كاملاً لمعرفة حقيقة هذا الرجل وكتابه، يقول: "ففتّح لي بابٌ كبير للدفاع عنه، ووجدت صاحب السيف اليماني يشكر على غيرته وحميته، ولكن لا نغفر له ظلمه وجرأته وغفلته وكذبه وتدليسه في حكمه على أبي الفرج وفي حكمه على كتاب الأغاني...". وقد قيد كثيراً من الإشارات والملاحظات، وحاول فيه الانتصار لأبي الفرج وتبرئته مما اتهم به، فدافع عنه وبرر ما أمكنه تبريره، وخطأ مراد الأعظمي واتهمه بالتحامل على صاحب الكتاب من غير دليل⁽³⁾.

وعرض كاتب آخر لمؤلف كتاب الأغاني فوصفه بقوله كان مؤلف الأغاني رقيق الدين سيء السيرة يعطي نفسه هواها وينغمس في المعاصي، وكان وسخ الثوب، قذر الهيئة، بذيء اللسان⁽⁴⁾.

(1) . السيف اليماني، 4130.

(2) . انظر السيف اليماني، ص: 4103.

(3) . انظر الرد على السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني، بقلم عادل بن حرمان، صفحة التواصل الاجتماعي (الفييس بوك) منشور بتاريخ 11/24 / 2011م.

(4) . فصول في الثقافة والأدب، علي الطنطاوي، ص: 102.

وقال عنه ابن الجوزي ومثله لا يوثق بروايته، يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق، ويهون شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه، ومن تأمل كتاب الأغاني رأى كل قبيح ومنكر⁽¹⁾.

ونحن هنا لا نريد أن نكيل التهم جُزأفاً، ولا أن نصدر الأحكام من غير نظر ودليل، فمن حقنا ومن مقتضيات البحث العلمي أن ننظر فيما ذكره من أتم هذا الكتاب ومؤلفه من أدلة قبل أن نقبل ما قالوا به أو نرده، وأنا واقف بك أيها الأخ الكريم عند بعض ما جاء في كتاب الأغاني مما أخذ عليه وأتم به، فإليك بعض تلك التهم والسقطات، والمآخذ والهفوات التي أخذت على الكتاب وصاحبه:

1. أن صاحب الكتاب كان متأثراً في كتابه بأخلاقه الشخصية، وهي أخلاق عليها كثير من المآخذ، ففيه ميل إلى مواطن الريبة ومواضع الاتهام، فلعل ثقافته الواسعة في هذا الجانب ومعرفته بتلك الزوايا المظلمة هي ما دفعه إلى التركيز على الجوانب الضعيفة من حياة الشعراء الذين ترجم لهم وتحدث عنهم، أعني الجوانب التي يلتقي معهم فيها، وأهم ما في حياتهم من اعتدال وجوانب ناصعة لامعة.

2. أكثر المؤلف في كتابه من ذكر المجون والخلاعة⁽²⁾، حتى إن القارئ ليحس بأن المؤلف يجره إلى الشوارع الخلفية والبيئات والمواقع المعتمدة.

3. كان صاحب كتاب الأغاني يصور المجتمع العربي الإسلامي مجتمعاً فاسداً متسكعاً، يجري كثير منهم وراء الشهوة وشرب الخمر، مجتمعاً غارقاً في الملذات حتى النخاع، ومن قرأ خبر طويس وما جاء فيه أدرك هذا بكل وضوح، فالشعوبية وكراهية العرب بادية ظاهرة من دون شك⁽³⁾.

4. كثيراً ما تحامل الأصفهاني على الأمويين وكال لهم التهم ووصفهم بما لا يليق، فلم يكن دقيقاً ولا كان منصفاً فيما كتبه عنهم، وربما ورطه فيما سطره أن كتابته لهذا الكتاب كانت زمن العباسيين خصوصاً بني أمية والثائرين عليهم والذين قيصوا بنيان دولتهم وأسقطوها، ولعل المؤلف كان يسعى إلى أن يترضى أهل السلطة الزمنية في حينه، فيجب أن يؤخذ ما كتب عن بني أمية ودولتهم زمن العباسيين بشيء من الحذر والاحتياط والتحفظ⁽⁴⁾.

(1). انظر السيف اليماني، ص: 4109، وكتاب الأغاني، 1/19.

(2). تأمل خبر أبي قطيفة، الأغاني، 1/24، وخبر الوليد بن يزيد، الأغاني، 7/59.

(3). انظر كتاب الأغاني، 3/37.

(4). المصدر السابق، 7/46، و 7/58.

- 5 . وما أخذ على الأصفهاني إهماله الترجمة لشاعرين كبيرين هما أبو نواس وابن الرومي، فما مبرر هذا الترك والتغافل عنهما، وهما من هما قدرا ومنزلة في هذا الباب .
- 6 . قلة ورعه وخوضه في بعض المسائل الدينية بأسلوب، يدل على رقة دينه، وهو أمر لا يصح ولا يقبل منه⁽¹⁾ .
- 7 . وما أخذ عليه تساهله المفرط في النقل عن رجال مجروحين، لا تقبل عنهم رواية قد تكلم عنهم علماء الجرح والتعديل وحذروا من النقل عنهم، وقد حصر مراد الأعظمي من نقل عنهم الأصفهاني من هؤلاء الرواة الكذابين فزادوا على الثلاثين راويا، وكان الأصفهاني قد روى عن بعضهم في أكثر من مائة موضع من كتابه⁽²⁾ .
- ومن قال إن اخبار الأدب والغناء والسمر لا يشترط فيها شروط التوثيق الواردة في الحديث الشريف والسيرة النبوية، وأن العلماء تساهلوا في الرواية في غير أحاديث الأحكام والعقائد، نقول: هذا لو كان الرواة معروفين بالعدالة والثقة، أما المجروحون المطعون عليهم فإن العلماء يتجنبون الرواية عنهم في كل شيء، ثم إن التساهل قد يقبل لو كان مرة أو مرتين، أما أن تصل الروايات عدة مئات فلا⁽³⁾ .
- 8 . كتاب الأغاني طافح بالأخبار التي تسيء إلى آل البيت النبوي وتقذح في سلوكهم، فهو يصفهم في أخباره بما يوهن شأنهم ويجعل منهم عشاقا للهوى والطرب والعبث، ويصف الحسن والحسين بأثما مغفلان منقادان لابن أبي عتيق، ويصف الحسين عليه السلام بأنه يقضي وقته لاهيا مع أشعب بالمدينة⁽⁴⁾ . كيف يتصور أن يصدر هذا ممن يدعي التشيع لآل البيت؟!
- 9 . وأما طعنه في بني أمية وخلفائهم فحدث ولا حرج، فالأصفهاني يذكر في كثير من الأخبار ما يقذح في أئمة وخلفاء ذلك العهد ويصف نسائهم بما يشين ويستهجن ذكره ويقبح إيراده على اللسان بله تسطيره في الكتب، فمن ذلك أن يزيد بن معاوية كانت تُشرب الخمرُ بمجلسه وعنده الإمام الحسين فلا ينكر عليه⁽⁵⁾، ومعبدا المغني يغني لزوجة الحسين⁽⁶⁾، والسيدة سكينه سفيهة ماجنة رعناء تحتكم في

(1) . انظر كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، 1 / 276 / 4 .. 46/7.

(2) . انظر السيف اليماني، وولد الأعظمي، 4114 . 4122.

(3) . المرجع السابق، 4122.

(4) . السيف اليماني، ص: 4152، ونظر كتاب الأغاني، 19 / 69 وما بعدها.

(5) . السيف اليماني، 4151، وانظر كتاب الأغاني، 15 / 232 . 233.

(6) . السيف اليماني، ص: 4153، وانظر الأغاني 12 / 197.

جمالها إلى عمر بن أبي ربيعة⁽¹⁾، وتجمع النساء لملاقاة عمر بن أبي ربيعة والحديث معهن⁽²⁾، وهي تحكم بين المغنين، وأن حنيننا الحيري مات في بيتها عندما سقط السقف على الحاضرين الذي اجتمعوا لسماع غنائه⁽³⁾، إلى غير ذلك من الأخبار النافهة الواهنة الواهية، والألفاظ البذيئة التي أرفع قلمي عن كتابتها ولساني عن البوح بها. فكيف نفسر هذه الإساءات إلى بني أمية من أموي؟ كيف يشتم أجداده ونساءهم ويسيء إليهم؟!

نتيجة الوزن وخلاصة القول:

إن الدارس لكتاب الأغاني الناظر لمؤلفه يجد نفسه أمام قامة أدبية رفيعة وسفر أدبي ضخم تعجز الكلمات عن وصفه، ويحتاج إلى متسع من الوقت لدراسته واستخراج ما فيه من كنوز مخبأة ودرر فريدة.

وفي المقابل نجد فيه كوامن قاتلة، وفيه دس وافتراء، وكذب وخبث يحتاج إلى عقل حصيف، ونظر ثاقب لاتقائه والسلامة منه.

ومن أراد أن يدرس هذا الكتاب للطلبة فأرى أن لا يعطيه إلا ومعه المصل المضاد، الكاشف لعواره وشناره والفاضح لخبثه ودسه، ومن الكتب النافعة في هذا الباب كتاب السيف اليماني لمراد الأعظمي، فأرى أن على دارس الأغاني ضرورة دراسة كتاب الأعظمي معه.

إن كتاب الأغاني من أعظم كتب الأدب ولكن لا يجوز الاعتماد على صحة أخباره ولا يجوز أن ينقل منه التاريخ، وصاحبه . على جلالة قدره في الأدب - رقيق الدين سيء السمعة بذيء اللسان لا يوثق بروايته ولا بصدقه ، فافروا كتاب الأغاني للمتعة الأدبية ولتقوم الملكة البيانية، ولكن لا تصدقوا كل ما يرويه ولا تعتمدوا عليه.

هذا والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(1) . السيف اليماني 4152، وانظر الأغاني، 16/ 93 وما بعدها.

(2) . السيف اليماني ، 4162، وانظر الأغاني، 162/1.

(3) . السيف اليماني، ص: 4164، وانظر كتاب الأغاني، 2/ 314.

مصادر البحث ومراجعته:

1. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، شرحه علي مهنا، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د: ت.
2. دراسة كتاب الأغاني ومنهج مؤلفه، لداود سلوم، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة، 1985م،
3. الرد على السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني، بقلم عادل بن حزمان، على موقع التواصل الاجتماعي (الفييس بوك) منشور بتاريخ: 24 / أكتوبر / 2011م
4. سير أعلام النبلاء، لشمس الدين الذهبي، دار المؤيد، مؤسسة الرسالة، ط11، 1422هـ، 2001م.
5. السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني، ضمن الأعمال النثرية الكاملة، لوليد الأعظمي، جمع وترتيب وتدقيق عبد الله الطنطاوي، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى 1428هـ، 2007م.
6. ظهر الإسلام، لأحمد أمين، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، الطبعة الخامسة، 1364هـ، 1945م.
7. عناوين جدد لوجوه قديمة في تراثنا الأدبي والفكري، لحسين مروة، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1984م،
8. فصول في الثقافة والأدب، علي الطنطاوي، دار المنارة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2007م،
9. ، المخصص، لابن سيده، دار الفكر، بيروت، 1398هـ. 1978م.
10. مفاتيح العلوم، الخورزمي، تقديم جودت فخر الدين، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1411هـ. 1991م.
11. مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن خلدون، دار العودة بيروت، 1988م.
12. معجم الأدباء، لياقوت الحموي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م.